

تقديم

نحن نعيش فى زمن مثير . فقد بدأت فى هذا الكتاب قبل الهجوم الذى وقع على مركز التجارة العالمى فى سبتمبر ٢٠٠١ م . وفجأة بدا أن بحثى الهادئ فى طبيعة الهوية والمصير الأمريكى جزءاً من محادثة قلقة حادة يقوم بها الجميع ؛ إذ إن الإحساس البريطانى بالانخراط فى المعاناة الأمريكية ، وإسهام بريطانيا فى «الحرب الأمريكية ضد الإرهاب» كشف بشكل ملح عن دور بريطانيا العام فى مقابل أمريكا ، وهو موضوع مهم آخر كان يحظى باهتمامى .

كان إحساسى الخاص باللوعة فى البداية كثيفاً ، بحيث منعتنى من الانفصال العقلى الضرورى لمواصلة الكتابة ، ليس فقط لأن زوجتى من مانهاتن وأنا أعرف هذه المدينة العظيمة وأحبها . كان علىّ أن أتوقف فترة من الزمن . فما كنت أتصوره أساساً كتاباً عن التاريخ الأنجلو-أمريكى صار كتاباً فى الشئون الجارية ، بل هو فى الواقع عما يسميه الصحفيون قصة خبر العقد ، وكل من عداهم يعتبره أكبر كارثة مرعبة شاهدوها ، أو سمعوا بها . ومثل ملايين غيرى ، جلست أنا وزوجتى نشاهده وهو يحدث ، حياً على شاشة قناة CNN .

ما هى أمريكا؟ من هم الإنجليز؟ مقالتي هى أن السر الكامن وراء هذه الأسرار موجود فى رواية صاغها الإنجليز ، ثم تلاهم الأمريكيون لأنفسهم ، تقوم على أساس تحويل التشابه بين موقفهم وموقف بنى إسرائيل القداماء . هذا هو أصل مصطلح «الشعب المختار» . إنه لم يكن مجرد أنهم مختارون من الرب بصفة خاصة . وفى أذهانهم أن اختيارهم بصفة خاصة تم لنفس الغرض الذى اختار الرب اليهود من أجله (ثم نبذهم) ، وأن هذا الغرض كان أساسياً بالنسبة للجنس البشرى على هذا الكوكب .

أما الشيء الذي استمر يدهشني ، ما أن يبدأ المرء في النظر من هذا المنظور ، فهو المدى الذي تقدمت إليه هذه الأفكار لتسوق سلسلة كاملة من التطورات التي كانت حاسمة في اتجاه التاريخ : ظهور الدولة الوطنية وعزلة إنجلترا عن أوروبا ؛ الحرب الأهلية الإنجليزية التي جعلت أوليفر كرومويل يحقن على شارل الأول ، الإطاحة بجيمس الثاني والأساطير المسلية عن الثورة المجيدة ، كراهية فرنسا وإسبانيا ، الاستيطان الباكر في أمريكا ، انفصال أمريكا عن إنجلترا في الحرب الثورية ، القضاء على سكان أمريكا الأصليين «الهنود» ؛ بسبب التوسع الأمريكي في الغرب ، مكاسب إنجلترا من تجارة الرقيق ثم معارضتها لها فيما بعد ، الحرب الأهلية الأمريكية والقضاء على الرق ؛ نمو الإمبراطورية البريطانية في الهند وأفريقيا ؛ تأسيس «وطن قومي لليهود» في الشرق الأوسط ، تورط إنجلترا في حرب القرم ثم في الحرب العالمية الأولى (والواقع في الحرب العالمية الثانية أيضاً) ، حركة الحقوق المدنية الأمريكية ، الاستقامة السياسية ، انهيار التمييز العنصري -ويمكنني أن استمر .

وإذا نحننا أيرلندا الشمالية جانباً ، فإن الكتاب صار تقريباً المعادل التاريخي واللاهوتي للبحث العلمي عن «نظرية لكل شيء» ؛ إذ إنه يجيء إلى الساحة نفسها بالسير إسحاق نيوتن ومارتن لوثر كنج ، والفيلد مارشال دوجلاس هيچ ، وچورچ واشنطن ، وچورچ دبليو بوش وتوماس مور ، وأدم وحواء ، والاتحاد الأوروبي . والمادة الخام الحقيقية لهذه النظرية هي معرفة جيداً بالفعل ، كما أن بعض الكتاب استكشفوا الأجزاء التي يعرفونها أحسن من غيرها بطريقة ذكية ، ولكنها مبعثرة بين المتخصصين . والخبرة لها عيوبها . فالمؤرخون الذين كتبوا عن الحرب الأهلية الأمريكية لا يعرفون الكثير عن جفوة هنرى الثامن مع روما ، واللاهوتيون الكالفينيون لا يفهمون في سياسة شركة الهند الشرقية تجاه حرق الأرامل ، والخبراء في دستور إنجلترا أو أمريكا لا يعرفون طريقهم إلى سفر التثنية أو الحوليات ، والباحثون في معاداة السامية والهولوكوست لا يرون أية علاقة تربط بين هذا وبين حرب الاستقلال الأمريكية . وما يربط كل هذه الأشياء في الحزمة نفسها هو مفهوم الشعب المختار . وزعمى الوحيد هو أنني أعرف ما يكفي عن كل من هذه الأمور بحيث أجمعها سوياً .

وللهولة الأولى (على الأقل بالنسبة لعينيّ الحديثين) يبدو المفهوم وقد عفا عليه الزمن تمامًا، أو يبدو شيئًا محدودًا في إطار المتطرفين الأصوليين . ولا شك في أن هذا أحد الأسباب في أن الباحثين عزفوا عن هذا، كما أنه ليس من المعاصرة أن تنظر باتجاه الدين - والمذهب البروتستانتي بصفة خاصة - لكي تفسر أى شيء . ولكن هذا الكتاب يتضمن بالضرورة حضور هذا المفهوم في إنجلترا وأمريكا خلال مئات السنين القليلة الماضية من تاريخهما، وبرهن هذا الحضور على أنه عامل حسم في الطريقة التي تحول بها التاريخ، والحضور الضمني المستمر - وأحيانًا الغياب على نحو لا يقل أهمية - لهذا المفهوم ما يزال يكشف عن قدر كبير يتعلق بالحالة الراهنة لهذين البلدين غير العاديين، بما في ذلك دوافعها .

هذا الكتاب ليس ضد الدين، على الرغم من أنه يكشف عن أوجه القصور في صيغة معينة للمسيحية البروتستانتية - كانت منذ زمن غير بعيد النوع الوحيد منها - يعتبرها معظم البروتستانت المحدثين الآن قد عفى عليها الزمن تمامًا، بيد أنه لا يكفي أن نقول «حسنًا، هذه كانت غلطة، دعنا ننساها» إذا ما كان البلدان مستمرين على نفس خط السير الذي تم تحديده هكذا، وإذا ما كنا راغبين في معرفة السبب في أنهما على الحال التي هما عليهما، فإن من الواجب عليهما أن ينظرا إلى تاريخهما المشترك ولا يمكنهما فعل ذلك من خلال عدسات تحجب الدين في القلب، لمجرد أن الناس «لم يعودوا يؤمنون بهذا» . ولذلك فإنه إذا كان هذا الكتاب يساعدنا على الاتصال بماضيينا؛ لكي نسيطر على مستقبلنا بطريقة أفضل، فإنه يكون قد أدى عمله .

كليفورد لونغلي

يناير ٢٠٠٢، إنجلترا